

# الدكتور أورد سعيد، "الاستشراق"

(نيويورك : بانتيون، 1978)، 368 صفحة  
Edward W. Said "ORIENTALISME"  
(New York : Pantheon Books, 1978)

بقلم: الدكتور خليل سمعان

أما مؤلف الكتاب فإنه يعرف موضوع كتابه بأنه الحلة الأكاديمية ، التي تدرس فيها مباحث شرقية ، يعمل ضمن نطاق تخصصها بحاثة وكتاب متخصصون يعتبرون الشرق موضوع تخصصهم الجامعي . وينتسب المؤلف فيؤكده بأن الشرق هو من الحقيقة عالم يتتألف من « حضارات وأمم تقطن المناطق الشرقية (من الكراة الأرضية) لهم من طرق المعيشة والعادات والتاريخ واقع هو أعظم بكثير من كل ما يمكن أن يوصفو به في الغرب (ص 5) » ثم يشير الكاتب إلى إن الحضارة والتاريخ لا يمكن أن ينها أو يدرسا علميا دون الرجوع إلى التوالي الكلمة فيها والتعرف على حدود هذه التوالي . فالصلة الثانية بين الغرب والشرق ؛ كانت ولا تزال علاقات قوية ، أي علاقة تحكم الغرب بالشرق واستعماره ، على مستوى درجات مختلفة ، وصفها بكل دقة الكاتب ك . م . بانيكار في كتابه : K.M. Panikkar : Asia and Western Dominance. London : George Allen and Unwin, 1959.

هذا ولقد استشرق الشرق لا لكونه اكتشف « شرقياً » من جميع النواحي المكن اعتبارها بصورة طبيعية صحيحة له . لتد اكتشف الشرق من قبله الإنسان الأوروبي في القرن التاسع عشر ، واستشرق لاته

« حدث العام الأدبي . فتح في عالم النقد الرمسي والطبع العلمي الصحيح . كتاب وجبت قراءته على كل طالب وباحثة واستاذ متخصص وأمريكي متقد .

هذا بعض ما نقرأ ونسمع عن كتاب الزميل الدكتور أورد سعيد ، استاذ الادب المقارن في جامعة كولومبيا في الاستشراق والمستشرقين ومدارسهم ودراساتهم ، الف ث منها والستين . وهو يحتوى على مقدمة وثلاثة أبواب :

المقدمة هي في الواقع عرض منهجي منفصل ، أراد المؤلف أن يكون للقارئ تعميقا جغرافيا وحضاريا لموضوع الاستشراق ، ميز فيه بين وجهى نظر فربتين ، أولاهما تعود إلى الفكر والعمل الأوروبي ، والثانية إلى الفكر والعمل الأمريكي في حل الدراسات الشرقية . نبينا ينظر الفرنسي إلى الشرق بوصفه المنطقة الجغرافية التي وصفها « شاتوبيريان » « وترفال » في رواياتهما ، نجد أن الأمريكي إنما ينظر إلى ذات المنطقة ولكن بوصفها المنطقة الجغرافية الواقعة شرقى شبه القارة الهندية .

فرامسكي وسواء من بناء صرح النقد الحديث .  
ويختتم الكاتب مقدمته بتحديد موضوع بحثه تحديداً منطقياً لا يقبل الكثير من الجدل .

هذا الكتاب القديم حاصل بوقائع تاريخية وادبية حلها المؤلف ، مظهراً تزرت الغرب ومستشرقيه ، فالتي على اعمالهم أضواه تغير السبيل امام الدارس ، وتمكنه من تمييز الرخيص من اعمال الدعاية ، والظالم من ترهات اداء الحضارات غير الاوروبية ، كما تمكنه من التعرف بأساليب الاستشراق ومنطلقاتها . والحق يقال ان عرضاً نقدياً لكل ما جاء في هذا الكتاب القديم من تحليل ونظريات واستنتاج لا يتسع له هذا المقام ، وانه لا مناص للباحث العربي من اقتناء هذا الكتاب ودراسته بكل تؤدة وثنا ، وقبل ان ابدأ بعرض موجز لخلقية هذا العمل النتقدي العلمي اود ان اشير الى محاولتين اعتبرهما صرختين في واد ، او لاهم مقال قصیر جداً نشر في مجلة « الأداب » الباريسية ، السنة 22 ، العدد 6 ، حزيران 1974 ، بقلم الدكتور ابراهيم ابو لغد ، شكا فيه الكاتب من سيطرة الصهاينة الامريكيين على الدراسات العربية (ص 5-6) والاخري بحث قيم تدميجه الدكتور هارتسبوت مايندريخ في مؤتمر الدراسات العربية في غوتنغن ، المانيا الغربية ونشر في سلسلة دراسات المجمع العلمي في غوتنغن ، Akten des VII Kongresses für arabistik und islamwissenschafts، Herausgegeben von Albert Dietrich.

ABHANDLUNGEN DER AKADEMIE DER WISSENSCHAFTEN IN GOTTINGEN.  
Göttingen. Vandenhoeck & Ruprecht. 1976 — Hartmut Fahndrich, « Historical perspective in Nöldeke's Orientalische Skizzen (1892), pp. 146-154

اشار فيه الى تزرت شيخ المستشرقين الالمان في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين «تيدور نولدكه» . وانما اشير الى هذين العلميين الادبيين لا لكونهما مرجعين او مصدرين من مراجع البحث ولكن لما يقتضيه البحث العلمي من امانة تحقيق .

اما كتاب الدكتور ادورد سعيد فممكن القول ، وبكل اختصار ، بأنه عمل علمي يعرض آراء الاستشراق في الشرق محللاً ، ويفندها ناقداً ، ويستنتاج منها خطأ تسيير المجتمع الانسانى وعاداته وتقاليده السى قسمين : غربياً وشرقاً ، مشيراً الى ان هذا التقسيم

كان من المكن تعريفه للكبونة وللتصنیع كمال شرقى . مثل هذا يستخرج من وصیف الفرنسي « تلوپير » للسيدة « كوشوك هاتم » ، الغانية المصرية التي لم تتلام قط ولم تعبر عن عواطفها ، او وجودها ، او تلبيتها ، بل تلک منها ومتلها « تلوپير » نفسه . وهذه الواسمنات بالذات هي التي تشكل الواقع التاريخي الذي مكن « تلوپير » من امتلاك « كوشوك هاتم » امتلاكاً جديداً ، والتحدث باسمها وشرح شرقيتها - (ص 6) -

وبناء على الدكتور سعيد قائلاً : انه لا يجب مطلقاً الترضي بان هيكل الدراسات المشرقية هو مجرد اكاذيب واوهام يمكن أن تتحقق وينعدم وجودها بمجرد بيان الحقائق عنها . فالمؤلف يعتقد ان الدراسات المشرقية لها أهمية كبيرة كدليل للسيطرة الاوروبية - الاطلantية على « الشرق » ، أهمية هي اكبر بكثير من أهميتها كحقل دراسى اكاديمى . ان ما يجب ان يعرفه الدارس ويتنهى تفهمها صحيحاً هو تفاعل الدراسات المشرقية في المجتمع الغربي وعلاقتها الوثيقة جداً بمؤسساته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأيضاً قوة وجودها المرهبة . فمن تحصيل الحاصل ان اية مجموعة من الانكار التي يمكنها ان تحافظ على وجودها دون تغيير ، تكونها غير قابلة للتطور والتحوير كمجموعة احكام ومبادئ قابلة للتدريس في المعاهد والنانشة في المؤتمرات العالمية ، وفي الكتب المستعملة في تهيئة الدبلوماسيين والسياسيين ، اي عمل فكري كهذا يبقى دون تغيير منذ عهد الفرنسي « رينان » (حوالى 1840م) الى يومنا هذا ، وفي بلاد كالولايات المتحدة الامريكية ، هو في الواقع عمل مخيف رهيب ، وارهاب بكثير من مجموعة اكاذيب وخرافات تستخدم كاداة تنتهي وتأهيل موظفين . وعليه فان الاستشراق ليس مجرد وهم اوروبي عن الشرق . انه مجموعة نظريات واساليب ومبادئ واسعة وضعت منذ اجيال كثيرة سلفت . لقد كلفت الكثير من المال ووظفت ثروات كبيرة في استثمار الاستشراك لهدف استعمار الشرق .

هذا هو ادنى هيكل الاستشراك او دراسات الشرق او المشرق الذي يعالج المؤلف شارحاً نقائصه ومساويه استعماله الاكاديمى في الغرب . وكما سبق وذكرت ، يستعمل الكاتب في بحثه وتحليله بنظريات نقدية حديثة ، ومنهجاً اجتماعياً - اقتصادياً - سياسياً - ادبياً - تاريخياً ، معتمداً كثيراً على نظريات

و شمال افريقيا ليست المنطقة التي تشكل مركزا ثقافيا  
ذا قيمة او أهمية ، وان ليس هناك ما يدل على انها  
سوف تشكل مركزا ثقافيا في المستقبل القريب وبلدا من  
دراسة لغات هذه المنطقة لا يمكن ان تجده نفعا على  
دارسيها بالنسبة للحضارة الانسانية الحديثة ...  
ونتابع الدكتور « مرو برجر » يقول بان منطقة الشرق  
الاوسع « لا تشكل مركز قوة سياسية » ، وان ليس  
هناك ما يشير الى انها ستتصبح قوة سياسية ذات  
أهمية « (كذا) ... هذه المعلومات الخاطئة عن الشرق  
والشريقيين لها اثيرها في جميع مرافق الفكر الغربي . انها  
تنطلق من كتب التاريخ التي تدرس في ثانويات أمريكا  
حيث يتعلم الطالب ان الاسلام « أسسه تاجر عربى  
غنى اسمه محمد قال بأنه نبى فتبعه قوم من العرب  
وغير العرب كان يقول لهم انهم انتخبوا من قبل السماء  
لحكم العالم » (كذا) ... و اذا ، فان الاستشراق و مهمته  
التعليمية يحملن تسطا كثيرة من مسؤولية تخدير  
الخلق الغربي نلا يتأثر بتشريد شعب فلسطين ،  
ولا بظلم شاه ايران لشعب ايران بل ينظر الى هذه  
المأسى وكأنها نتيجة طبيعية لعملية « تصريح وتمدين »  
الشرق والشريقيين .

على ان الكاتب لا يحكم على جميع المستشرقين  
بالظلم والجهل ، هناك من المستشرقين من حصل على  
معرفة صحيحة بالشرق فوصفه وصفا موضعيا لا  
يأس به بل هناك من المستشرقين من ادى خدمات  
معترضا بها للعلم والمعرفة .

ويستخلص المؤلف من بحثه ان الدين الاسلامي  
المعروف في الغرب بالاسلام هو شيء والدول الشرعية  
شيء آخر . نكما انه لا يجوز لنا كبحاته منصفين  
القول بان المسيحية مسؤولة عن مساوىء حكم  
الجرائم الشبيهين لا يجوز ان نقول بان الاسلام هو  
مرأة مساوية ومصدر مأسى الشرق والشريقيين .  
فالاسلام ، وهو دين مساوي مقدس وهو مصدر  
الغذاء الروحي للمسلمين . هؤلاء يعيشون في عالمنا هذا  
لا في « الاسلام » وعليه فان معرفة الاسلام والمسلمين  
تفرض على المارف معرفة العالم الذي يعيش ضمن  
نطاقه المسلم وغير المسلم ، المسلمين هم اعضاء في  
المجتمع الانساني كسوادهم من المؤمنين بالاديان الاخرى .  
انهم اعضاء صالحون متوجون في المجتمع الانساني  
الذى يشكل الاسلام جزءا منه .

حيا الله الدكتور ادورد سعيد وامثاله من سفراء  
الحضارة العربية في الغرب .

هو من انتاج الفكر الغربي وتخطيقه للحط من قيم  
الانسان الشرقي وفلسفته وجوده ، وذلك كمدمة  
لاستعمار الشرق من قبل الغرب الطموح الطساع .  
فالغرب يتحدث منذ قرون عديدة عن الصوفية الشرعية ،  
والتراث الشرقي ، ودروشة الشرق ، وعقلية الشرق ،  
وانغماس الشرق في ملذاته المادية ، وما الى ذلك من  
تراثات كان لها الاثر الحاسم في تصور الغرب للشرق  
باته منطقة غريبة ساحرة ، غير متدينة ، ولكن غنية ،  
لا باس من الاستيلاء على ثرواتها « وتمدينها » فتصبح  
صورة مقرنة عن الغرب « المتدين » . وطبعاً أن  
يكون للتزمت الديني الغربي اثر فعال في وضع  
الدين الاسلامي في وسط الدائرة ، وجعله موضوع  
تحليل ونقاش عنيفين ، مما ادى الى الاستنتاج الخاطئ  
بان الدين الاسلامي مسؤول عن العقلية الشرعية ،  
والدروشة الشرعية الاسلامية الخ . وسبب هذا  
التشويش النكفي هو ان الدين الاسلامي والحضارة  
العربية شكلت في القرون الوسطى خطراً كبيراً على  
دين الغرب وحضارته . هذا الدين الحنيف لم يخضع في  
يوم من الايام لسيطرة الغرب وعنصريته ، ولذلك ،  
اصبح في نظر المستشرقين مصدر قوة الحضارة العربية  
ـ الشرعية وملهمها . من هذا المنطلق بدأ الغرب يدرس  
« الاسلام » دراسته التحليلية المعروفة بخصبها وسوء  
منهجها . ومن هنا أستنتج الاستشراق ان طريق  
التعرف بشعوب الشرق لا يتم الا عن طريق التصرف  
« بالاسلام » . وكذلك السيطرة على الشرق : فقد قرر  
المستشرقون أنها هي ايضاً لا يمكن ان تتم دون  
« الاستيلاء » على « الاسلام » .

وي Kendall الكاتب موقف الغرب المسيحي من  
الاسلام ونبيه تنبيناً يظهر بوضوح جهل الاستشراق  
وظلمه وعجرفته . هذا الجهل هو الذي ادى  
بالاستشراق الى الاعتقاد بان على كاهله تقع مهمة  
« تمدين » الاسلام والشرق المسلم . ويقول الكاتب ان  
كارل ماركس نفسه لم يكن معصوماً عن الوقوع في خطا  
نظريات الاستشراق هذه . كما يشير الكاتب الى ان  
الاستشراق ، وهو غير قابل للتطور والتحرر من  
تراثه وعنصريته ، ما زال حتى في ايامنا هذه مصدررا  
للمعلومات الخاطئة عن الشرق والشريقيين . فهو يشير  
إلى تحرير كتابه عام 1967 الدكتور « مرو برجر » ،  
أستاذ العلوم الاجتماعية في جامعة برنسون الامريكية ،  
ورئيس جمعية الدراسات الشرعية وشمال افريقيا  
في أمريكا وكندا ، يقول فيه بان منطقة الشرق الاوسط